# الشاعر والمتلقي
## في كتاب وحي القلم للرافعي

إننا عندما ننظر في الخطاب النقدي العربي منه والغربي نجد أن اهتمام النقاد انصب على مجموعة من العناصر ومنها: الشاعر والشعر والمتلقي. كما تحدث هؤلاء النقاد عن رسالة الشعر وعن الآثار التي يخلفها في الناس وغير ذلك مما يتصل بالعمل الإبداعي.

وما اختلاف النقاد والمناهج النقدية إلا باختلاف اعتماد كل واحد منها على عنصر دون الآخر. أو الجمع بين بعضها في بعض الأحيان.

ونريد في هذا البحث أن نتحدث عن الشاعر وجمال شعره وعن المتلقي كما يعالجها مصطفى صادق الرافعي في كتابه " وحي القلم ".

ونشير في البداية إلى أن هذه العناصر كلها استأثرت باهتمام هذا الناقد باعتبار أنه يرى أن جمال الشعر في آخر المطاف مبني على تلاحم هذه العناصر كلها دون إهمال عنصر منها. ولعل فشل بعض المناهج النقدية في الإلمام بكل عناصر العملية الإبداعية آت من تركيزها على عنصر واحد في نقد العمل الإبداعي وإهمال العناصر الأخرى.

ورحلتنا مع كتاب " وحي القلم " تبتدئ بالحديث عن الشاعر. فكيف نظر الرافعي إلى الشاعر في كتابه هذا؟

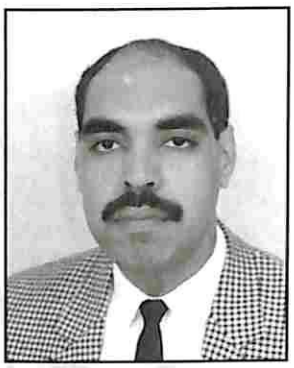

بقلم: د . إسماعيل علوي*
المغرب

إن الحديث عن الشاعر من الأمور الضرورية في النقد الأدبي لأن الشاعر هو منبع الشعر .ومن ثم كان الحديث عن حياته وظروفه وطبعه وأخلاقه وبيئته وغير ذلك.

وقد اهتم المنهج التاريخي بهذا المنحى واعتمده بعض الغربيين:"سانت بوف" و"هيبولي تين " و"لانسون" وإذا نظرنا إلى الأدب العربي نجد أن " المنهج التاريخي نما نموا عظيما ،فهذه دراسات جورجي زيدان وأحمد الإسكندري والشيخ المهدي تبدأ الطريق ...فقد أخذت تدرس عصور الأدب ...وتدرس شيئا عن الشخصيات..أما أول مؤلف سلك هذا المنهج سلوكا حقيقيا فهو الدكتور طه حسين في كتابه الأول "ذكرى أبي العلاء ...[1].

وإذا كان لهذا المنهج جوانبه القوية فإن له جوانب سلبية كذلك لإغفاله للنص ومتلقيه.وقد اهتم مصطفى صادق الرافعي بدوره بالشاعر في عدة مستويات تتناول مؤهلاته وما امتلكه من قدرات.

وقد عد هذا الناقدُ الشاعرَ ذلك الإنسان الذي يتوافر على مؤهلات ليست لغيره من الناس. فهو يرى الأشياء بطريقة مختلفة تمكنه من الغوص في أغوارها واكتناه أسرارها .وذلك لأنه:" يرى الطبيعة كلها بعينين لهما عشق خاص وفيهما غزل على حدة[2].

ويحدثنا الرافعي كذلك عما يمتلكه الشاعر من مؤهلات في قوله:"والإنسان من الناس يعيش في عمر واحد،ولكن الشاعر يبدو كأنه في أعمار كثيرة من عواطفه،وكأنما ينطوي على نفوس مختلفة تجمع الإنسانية من أطرافها .وبذلك خُلق ليفيض من هذه الحياة على الدنيا،كأنما هو نبع إنساني للإحساس يغترف الناسُ منه[3].

إن العاطفة من العناصر التي تدخل في قدرات الشاعر باعتبار أنها تكون لديه متأججة متحركة حية.وهو بذلك يجمع ما تفرق في نفوس أخرى ويضم كثيرا مما انطوت عليه أعمار آخرين.

ومن هنا حق له أن يكون نبعا إنسانيا يمد الناس بشعره المشتمل على هذه العواطف في كل أغراض الشعر ومواضيعه.وأشار الرافعي في هذا النص إلى عنصر آخر من أهم عناصر قوة الشاعر وهو الإحساس.ومما لاشك فيه أنه مرهف لدى الشاعر متميز برقته.وبذلك يكون بمثابة المرآة التي تعكس ما تكون عليه أحوال الناس في مجالات عدة.

ومن هنا يكون الناس في مسيس الحاجة إلى الشاعر لأنه يرشدهم بعاطفته وعشقه وإحساسه إلى ما لم يروه في الطبيعة وفي أنفسهم.ويعمل هذا الإحساس الرقيق لدى الشاعر المؤمن في مجالين:فهو بمثابة المنبه للناس إذا زاغوا عن الطريق أو أرادوا إفساد الجمال المبثوث فيهم وفيما حولهم.كما أنه يستشعر صور الجمال التي قدمها الناس في كل المجالات ويهيب بهم أن يحافظوا عليها ويستمروا في إبداعها.

ويعدد لنا مصطفى صادق الرافعي مؤهلات أخرى لدى الشاعر حيث يقول:"هناك قُوى روحية لإدراك الجمال وخلقه في الأشياء خلقا هو روح الشعر وروح فنه،وقوى أخرى لصلة العواطف بالفكر صلة هي سر الشعر وسر فنه، وقوىً غير هذه وتلك لتحويل ما يخالج النفس الشاعرة تحويل المبالغة التي هي قوة الشعر وقوة فنه؛ وبمجموع هذه القُوى كلّها تمتاز روح الشاعر من غير الشاعر[4].

---

* جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة.

فهناك مجموعة من القوى يمتاز بها الشاعر،وبها يُعرف.وفي كل هذه القوى بعد روحي يكون بمثابة الطاقة التي تجمع وتوحد بين الفكر والعاطفة وبين النفس والعقل فيكون الإبداع عبارة عن شحنة قذفت في كيان الشاعر فتولد الشعر.

وقد تحدث الرافعي في مقاله "سر النبوغ في الأدب" عن جهاز التوليد لدى العباقرة والمبدعين.وقوامه هو جماع ما ذكر من مؤهلات سابقة. ومن هنا يتبين لنا اهتمام هذا الناقد بالشاعر الذي يتأثر سلبا وإيجابا بمحيطه ولكنه يفوقهم بما حباه الله به من قدرات.

ومما ذُكر في سياق الحديث عن مؤهلات الشاعر قوله:"ولهذا تمتاز قريحة الشاعر بقدرتها على خلق الألوان النفسية التي تصبغ كل شيء وتلوّنه لإظهار حقائقه ودقائقه [٥].

إن القريحة من أهم ما يمتاز به الشاعر ويتفوق به عن غيره وذلك لأنها تخلق الألوان النفسية وهذا هو جوهر الشعر حيث إن الشاعر العظيم هو من يتمكن من خلق هذه الألوان.وخلقها يرتبط أيضا بما سبقت الإشارة إليه من إحساس وشعور متوقد عنده.

ويحدثنا الرافعي عن الشاعر بكونه ذلك الإنسان الذي يستطيع محاورة كل أشياء الطبيعة وتكليمها واستخراج جمالها.إذ يقول:"فكل شيء تعاوره الناس من أشياء هذه الدنيا فهو إنما يعطيهم مادته في هيئته الصامتة،حتى إذا انتهى إلى الشاعر أعطاه هذه المادة في صورتها المتكلمة[٦].

وإذا كان الشاعر يتوافر على هذه المكونات المتصلة بالقلب والإحساس والشعور فإنه كذلك "يفكر بعقله."[٧]وبهذا يكون شعوره وعواطفه موجهة توجيها لطيفا بالعقل حتى لا يزيغ إلى الأوهام والترهات.ولا يخفى علينا مدى اهتمام الرافعي بالعقل سواء في هذا المقام أم في غيره لأنه "اختط لنفسه طريق العقل."[٨] وبه تتهذب النفس وتستقيم وتهتدي إلى كل فن جميل وكيف لا " ونفس الشاعر العظيم تكاد تكون حاسة من حواس الكون[٩].

ولا شك في أن مصطفى صادق الرافعي بحديثه عن الشاعر وتعداد مؤهلاته يجعلنا ندرك مدى أهمية الاهتمام بهذا العنصر في العمل الإبداعي.

ومن جملة ما سطره هذا الناقد إزاء الشاعر حديثه عن موهبته فقال:"فأمثل الطرق في نقد موهبة الشاعر إدراكها بالروح الشعرية القوية من ناحية إحساسها والنفاذ إلى بصيرتها،واكتناه مقادير الإلهام فيها،وتأمل آثارها في الجمال،وتدبر طبيعتها الموسيقية في الحس والفهم والتعبير.[١٠].

ونرى كيف أن الموهبة من خلال ما اجتمع لها في هذا النص هي أساس العمل الشعري والمهمازالذي به نقيس قدرة الشاعر على الإبداع.ومدى استعداده لدخول عالم الشعر.

ومما يحسب للرافعي أنه لم يكتف بتناول الشاعر بذكر حياته وظروفه لأنه يدرك بأن "الشاعر لم يكن شاعرا بأنه رجل من الناس وحي من الأحياء وعمر من الحوادث المؤرخة ولكن بموضعه من أسرار الحياة وصلة نفسه بها وقدرة هذه النفس على أن تنفذ إلى حقائق الطبيعة في كائناتها عامة.[١١].

ولم يكن نقده مرتبطا بالشاعر فقط بل كان يعتمد طريقة تولي الاهتمام للشاعر وللشعر معا فقال:"وطريقتنا نحن في نقد الشعر تقوم على ركنين:البحث في موهبة الشاعر وهذا يتناول نفسه وإلهامه وحوادثه.والبحث في فنه البياني،وهو يتناول ألفاظه وسبكه وطريقته وسنقول فيهما معا.[١٢].

ويعد هذا النص مدخلا إلى الحديث عن العنصر الثاني في هذا البحث وهو الشعر.فماذا عن الشعر عند الرافعي؟

إذا كان الرافعي يقدم خطابا نقديا إزاء الشعر،فلأنه شاعر من الشعراء الذين دفعوا إلى مضايق الشعر ومارسوه.ولسنا هنا بصدد تقويم عمله الشعري ولكننا نود أن نشير إلى أن هذا الناقد يقول "لا ينبغي أن يعرض لنقد الشاعر والكلام عنه إلا شاعر يكون ذا طبيعة في النقد،أو كاتب عظيم يكون ذا طبيعة في الشعر.."(١٣).

وهذا النص بالذات يعطي المشروعية للرافعي لممارسة النقد الأدبي.فكيف تمت معالجته للشعر؟قبل أن نتحدث عن اهتمام الرافعي بالشعر نشير إلى أن هنالك مدارس نقدية اهتمت بالنص الشعري ونظرت فيه من داخله سواء عند العرب أم عند الغرب وما تقدمه البنيوية في هذا الصدد دليل على ذلك.ولا يسمح المقام هنا بالتفصيل في هذا المجال.

وإننا بالنظر إلى "وحي القلم " نجد أن هذا الناقد يهتم بالنص الشعري ويعالجه في مستويين الأول منهما خاص وهو ما يبدعه الشاعر من شعر وهذا ما أقره النص السابق من حيث تناول الفن البياني من ألفاظ وسبك وغير ذلك. وثانيهما عام وهو الذي ينظر فيه إلى الإبداع الشعري في مستوى آخر.وسنبتدئ بالحديث عن المستوى الأول:

**المستوى الأول:**

يعرف الرافعي أن الشعر يشتمل على جملة من المقومات الفنية والأبعاد المعنوية التي تجعل منه شعرا.فهنالك الصور الشعرية والأوزان وكل ما يكوّن الجانب الموسيقي بالإضافة إلى "جو اللغة البيانية،فالبيان إنما هو أشعة معاني القصيدة."(١٤). كما أشار إلى الخيال الذي يكون بمثابة "نحلة من النحل تلم بالأشياء لتبدع فيها المادة الحلوة للذوق والشعور."(١٥). كما أن الشعر عند هذا الرجل "فكر ينبض وعاطفة تختلج."(١٦).

**● طريقنا في نقد الشعر يقوم على ركنين: البحث في موهبة الشاعر ثم في قلمه البياني.**

ولا ننسى نصيب العقل في صنع الشعر كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن الشاعر.وبهذا ليست الأفكار و لا الحقائق هي الشعر عند صاحب وحي القلم وإنما الشعر هو ما يضفيه عليها من رونق وبهاء وجمال.

وهذه العناصر المذكورة هي المسؤولة عن جمال الشعر عند الرافعي.وهنالك أمور أخرى تصب في هذا المنحى وتكشف لنا عن فهم الرافعي للجمال إذ يقول: "يقف الشاعر بإزاء جمال الطبيعة، فلا يملك إلا أن يتدفق ويهتز ويطرب.لأن السر الذي انبثق هنا في الأرض، يريد أن ينبثق هناك في النفس .

والشاعر نبي هذه الديانة الرقيقة التي من شريعتها إصلاح الناس بالجمال والخير."(١٧) يتحدث هذا النص عن جمال الطبيعة وعن انفعال الشاعر بذلك وتدفقه بالشعر. وهذا أمر ضروري لكل شاعر وأمارة على الفعل الشعري عنده.وما الطرب والاهتزاز إلا بفعل ما حركته الطبيعة من تجليات الجمال.وبهذا تكون الطبيعة هي المحرك لقول الشعر الجميل بما بثه الله تعالى في الإنسان من قوى نفسية وعقلية تستلهم الجمال من الطبيعة،لأن الطبيعة "ليست جميلة إلا بالشعر."(١٨)

ويحدثنا الرافعي هنا عن وظيفة هامة لهذا الجمال المبثوث في الطبيعة وفي نفس الشاعر ألا وهي الإصلاح.فيكون الشعر بجماله وسيلة لفعل الخير وتثبيت الجمال.ومما يبين لنا اهتمام هذا الناقد بالجمال في الشعر أنه جعله مقياسا لنقد الشعر ونقد الأدب بصفة عامة في كتابه

قيد الدرس حيث إنه يقول عن الأديب إن "الأصل في عمله الفني ألا يبحث في الشيء نفسه،ولكن في البديع منه،وألا ينظر إلى وجوده،بل إلى سره،ولا يعنى بتركيبه،بل بالجمال في تركيبه."[١٩].

فهو يدعو إلى الاهتمام بالجمال ويرتكز عليه أثناء نقده للشعر.وعلى هذا الأساس يقول عن الشاعر عبد المجيد محمود أبو الو الوفا:"مذهبه الجمال في المعنى يبدعه كأنما يزهر به،والجمال في الصورة يخرجها من بيانه كما تخرج الغصون والأوراق من شجرتها."[٢٠].

وكان الرافعي ينبهر بالجمال الفني في كل تجلياته حيث إنه قال عن المتنبي "ولكن حكمته الإنسانية ودقة أوصافه وإقامته الفضائل والرذائل في كمالها الفني مقام تماثيل بارعة من الجمال،كل ذلك ترك شعره مستمرا باستمرار الحياة وباستمرار الإنسانية وباستمرار الذوق."[٢١].

**المستوى الثاني:**

هنالك مستوى آخر تحدث فيه الرافعي عن الشعر وفيه يقول على لسان شيطان طاغور:"الشاعر يبدع أمة كاملة وإن لم يخلقها فإنه يخلق أفكارها الجميلة وحكمتها الخالدة.وآدابها العالية وسياستها الموفقة."[٢٢] يحمل هذا النص اعتبارا للشاعر يجعله في مرتبة مهمة في المجتمع،وهذا التقدير آت من أدبه وحكمته في شعره.فمن خلال الشعر تخلق الأمة.

هناك إذن فراغ في هذه الحياة لا يقوم بملئه إلا الشاعر.كما أن هنالك نقصا عند الناس يجدون استكماله لديه بما أوتي من قوة.فكما أن الأمة في حاجة إلى الصانع والتاجر والسياسي والمهندس فإنها كذلك في أمس الحاجة إلى الشاعر باعتبار أنه يبدع الأمة من حيث الأفكار والحكم.وهذا المجال من أصعب المجالات التي تُبدع فيه الأمة.وعلى هذا الأساس كانت قيمة الشاعر مرتفعة.

وإلى جانب ما ذكر يشير الرافعي إلى أن الشعر في "أسرار الأشياء لا في الأشياء ذاتها."[٢٣] كما أنه "فكرة الوجود في الإنسان وفكرة الإنسان في الوجود"[٢٤]. وكل هذه الأمور تحيلنا إلى مفهوم الجمال في الشعر كما يراه الرافعي.

**المستوى الثالث:**

أضحى الاهتمام بالمتلقي بيّنا في الخطاب النقدي المعاصر،حيث إن هنالك إعادة الاعتبار إلى هذا العنصر الذي عانى من الإقصاء عند كثير من النقاد السابقين.ولهذا الاهتمام قيمته لأن المتلقي عنصر فاعل وضروري لحياة الشعر والأدب عامة.

ونجد أن مصطفى صادق الرافعي لم يقف عند تناول الشاعر والشعر فقط وإنما اهتم بالمتلقي كذلك.والعلاقة بين الشاعر - والأديب بصفة عامة - وبين المتلقي أمر أكد لأن الأديب "كأنه خلق ليتلقى الحقيقة ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفني."[٢٥] فعن طريق الأديب يتم التعرف إلى الجمال الكامن في الكون.

والمتلقي عند ناقدنا إما أن يكون ناقدا للشعر عارفا بمكوناته الفنية وقيمه المعنوية وإما أن يكون من عامة الناس.يقول الرافعي عن المتلقي الناقد "والشاعر والناقد يلتقيان جميعا في القارئ فوجب من ثم أن يكون الناقد قوة تكشف قوة مثلها أو دونها ليُصحّح فنٌ فنا مثله أو يقره أو يزيد عليه فضل بيان ومزية فكر."[٢٦].

وهو إذ يتحدث عن المتلقي الناقد فإنه يشير إلى أنه"لا يراد من النقد أن يكون الشاعر وشعره مادة إنشاء،بل مادة حساب مقدر بحقائق معينة لا بد منها.فنقد الشعر هو في الحقيقة علم حساب الشعر."[٢٧] وقد انتقد الرافعي المتلقي الذي يقف

عمله على التعليق على كلام الشاعر أو ذلك الذي "يتناول الشاعر باعتباره رجلا له موضع من الناس ومنزلة من الحياة ثم لا يعدو ذلك."(٢٨).

إن الرافعي يطمح إلى أن يكون المتلقي الناقد في المستوى المطلوب الذي يتيح للقارئ أن يتعرف إلى عوالم الشعر ويستمتع بها.وأن يكون طريقا إلى تذوق الشعر وكشف أسراره.ونراه يقول عن الشعر العربي."ألا وإن شعرنا العربي الجميل قد أصبح اليوم في أشد الحاجة إلى من يعلم القارئ كيف يذوقه ويتبينه ويخلص إلى التأثير فيه،ويخرجه مخرجا سَريا في أنغامه وألحانه."(٢٩).

ولا يخفى على قارئ "وحي القلم " أن يلاحظ أنه يعير اهتماما خاصا للمتلقي بوصفه قارئا للإبداع يقول الرافعي:"ومن أثر ذلك ما تحسه أنت إذا قرأت للأديب البليغ التام صاحب الفكر والأسلوب والذهن الملهم:فإنك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك..."(٣٠).

ويقول كذلك:"فيأتون بنظم تقرؤه إذا قرأته وأنت تتلوى كأنما يقرع على قلبك بقبضة يد أو يدق عليه بحجر."(٣١) ومما يدل على احتفاء ناقدنا بالمتلقي أنه يقول:"على أن شوقي لم يكن ينقصه باعتبار زمانه إلا (الجمهور الشعري )،وكل بلاء الشعر العربي أنه لا يجد هذا الجمهور..."(٣٢).

إن الرافعي يضع يدنا هنا على داء صعب قد يعصف بما في الشعر من قيم وجمال وهو فقدان الجمهور إذ لا حياة للشعر بدون جمهور ولا وظيفة له بدون من يتلقاه.ولا يتم النجاح إلا بشاعر مقتدر وشعر جميل وجمهور متذوق.

وقد عمل الرافعي في كتابه هذا على تبيان أسباب عزوف الجمهور على متابعة الشعر ومن ذلك ما ينشر في الصحف من شعر رديء وما يقدم عليه بعض النقاد من ترويج لهذا الشعر أو قدح في الشعر الجيد أو غير ذلك .وهناك ما يتصل بالقارئ أيضا في تكاسله أو عدم تمييزه بين الجميل والقبيح.

وانطلاقا من هذه الجولة القصيرة مع "وحي القلم" يتبين لنا أن الرافعي رحمه الله قد عالج الشعر في علاقته بمؤلفه ومتلقيه.ولم يضيق على نفسه في تناول عنصر وإهمال آخر مما جعله يلم بالعمل الإبداعي في شموليته.

وقد أوصى بأن يكون الشاعر مقتدرا فاعلا في المجتمع وأن يكون الشعر ذا وظيفة سامية وهي الإصلاح بالجمال وفعل الخير.كما أكد على دور المتلقي الذي يجب أن يعرف قيمة الشعر ويفصل فيه بين النافع والضار.ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة مواطن الجمال فيه. ■

**الهوامش:**

(١) سيد قطب "النقد الأدبي أصوله ومناهجه." دار الشروق ط الرابعة١٤٠٠ هـ ١٩٨٠م . ص ١٦٣

(٢) مصطفى صادق الرافعي " وحي القلم " دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان.الجزء ٣ ، ص ٢٣٥

(٣) نفسه الصفحتان ٢٣٥-٢٣٦

(٤) نفسه ص ٢٤٥

(٥) نفسه ص ٢٣٥

(٦) نفسه ص ٢٣٥

(٧) نفسه ص ٢٣٦

(٨)أحمد بسام ساعي "دراسات في الأدب الإسلامي ونقده.الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد."دار المنارة للنشر السعودية .جدة. ط,١ ,١٩٨٥ ص ١٧٨

(٩) وحي القلم الجزء ,٣ ص ٢٣٦

(١٠) نفسه ص ٢٤٦

(١١) نفسه ص ٢٣٩

(١٢) نفسه ص ٢٤٢

(١٣) نفسه ص ٢٤٠

(١٤) نفسه ص ٢٤٣

(١٥) نفسه ص ٢٣٦

(١٦) نفسه ص ٣٢٣

(١٧) نفسه الجزء الأول ص ,٣٦

(١٨) وحي القلم الجزء ,٣ ص ٢٢٣

(١٩) نفسه ص ٢١٦

(٢٠) نفسه ص ٣٧٣

(٢١) نفسه ص ٢٧٣

(٢٢) نفسه ص ٢٥٣

(٢٣) نفسه ص ٢٣٥

(٢٤) نفسه ص ٢٥٣

(٢٥) نفسه ص ٢١٤

(٢٦) نفسه ص ٢٤٠

(٢٧) نفسه ص ٢٣٩

(٢٨) نفسه ص ٢٣٩

(٢٩) نفسه ص ٢٤٢

(٣٠) نفسه ص ٢٢٦

(٣١) نفسه ص ٢٤٣

(٣٢) نفسه ص ٣٠٠